الفصل التاسع

ترابط الأفكار وتداعيها

فى حديثى الأخير عندما عالجت موضوع العادة ، كان فى ذهنى — أساسا — عاداتنا الحركية ، أى العادات المتعلقة بمسلكنا الخارجي ومظاهره .

بيد أن سبل تفكيرنا وعمليات شعورنا تخضع أيضا فى مجموعها لقانون العـادة .

واحدى نتائج ذلك هى الظاهرة التى تعرفونها جميعا تحت اسم تداعى الأفكار وترابطها . وهى الموضوع الذى أحب أن توجهوا انتباهكم اليه معى الآن .

لعلكم تذكرون أن الوعى تيار انسيابى دافق موصول بالأشياء والمشاعر والأحاسيس والميول الاندفاعية .

لقد اتضح لنا مما سبق ذكره أن صورها ، وحالاتها ، نبضا ، وايقاعا ، ووقعا ، ونغما ، تشبه كثيرا من المجالات ، أو الموجات الأخرى . لكل مجال أو موجة محور ارتكازه ، أو بؤرة حيويته ، على صورة أو هيئة أكثر الأمور بروزا فى تفكيرنا.على حين تكون كل الأشياء الأخرى المحيطة به أقل بروزا وأكثر غموضا بما فى ذلك هامش الميول الانفعالية والاتجاهات الناشطة المصاحبة للبؤرة والهامش على السواء .

فاذا وصفنا العقل بهذه الصفة : الانسيابية ، ذات السيولة كنا أقرب ما نكون الى الطبيعة .

وقد يبدو لنا لأول وهلة كما لو أن كل شيء غير محدود ولا جازم فى انسيابه وفى سيولة هذه الموجات المتتابعة التى يقفو بعضها أثر البعض الآخر ، ولكن التمعن والتنقيب والفحص تبين لنا أن لكل موجة تركيبا أو مقوما يمكن تفسيره بتركيب ومقومات الموجات التى سبقتها مباشرة .

وهذه العلاقة بين الموجة اللاحقة والموجات السابقة يعبر عنها بقانونين أساسيين للترابط أو التداعى ، يسمى أولهما قانون المماسة ، ويسمى الثانى قانون المشابهة أو المشاكلة .

فقانون المماسة قوامه أن الأشياء موضوع التفكير بالقياس الى الموجة المقبلة كانت فى خبرة سابقة — تالية للأشياء الممثلة فى الموجة التى مرت عندئذ . فالأشياء التى اختفت أو زالت كانت قبل ذلك مجاورة لها فى العقل .

وعندما تسرد حروف الهجاء ، أو تصلى لله مجاهرا بصلاتك أو مخافتا بها ، أو عندما ما يذكرك منظر الشيء باسمه أو اسم الشيء بموضوعه أو شكله فان كل ذلك يتم عن طريق قانون المماسة الذى بوساطته تقترح المواصفات للعقل .

أما قانون المشابهة أو المشاكلة فقوامه أنه عندما يخفق المماسة فى وصفه ما يحدث فان الأشياء اللاحقة ستبرهن على أنها تشبه أو تشاكل الأشياء السابقة على الرغم من أن الاثنين لم يسبق ممارستهما معا من قبل ولم يندمجا معا فى خبرة واحدة قبل ذلك .

وعندما نحلق فوق أجنحة الخيال فغالبا ما يكون هذا هكذا . وعندما نهرب الى الوهم فغالبا ما تكون حالتنا على هذا النحو الذى يقرره قانون المشابهة أو المشاكلة .

فاذا أوقفنا شرود أفكارنا فى حالة انسيابها وسألنا أنفسنا :

« ما الذى حدا بنا الى التفكير أو التأمل فى هذا الشىء أو الموضوع بالذات — الآن ؟ » فاننا نستطيع — فى كل الحالات تقريبا — أن نقتفى أثره ، ونرد وجوده الراهن الى شىء أو موضوع سابق أدخله فى عقلنا أو اعترض طريق تفكيرنا طبقا لواحد من هذين القانونين : قانون المماسة والقرب ، أو قانون المشابهة والمشاكلة .

ان السياق الكلى لجميع ما تتذكره مما حصلناه أو اكتسبناه — مثلا — هو نتيجة لقانون المماسة وحسب . فكلمات قصيدة شعرية ، أو جداول علم المثلثات وحقائق التاريخ وخصائص المواد كلها معروفة لنا كنظم محددة منسقة أو مجموعات من الأشياء تلتحم فى نسق يثبت بالتكرار الفائق الاحصاء والذى يفكرنا أى جزء واحد منه ببقية الأجزاء الأخرى .

وفي العقول الجافة المملة تنساب كل التابعات العقلية تقريبا على هذا النسق الرتيب من التكرار والتداعى على خلاف العقول الذكية الخلاقة الابتكارية — التى تستطيع أن تكسر هذا النسق الرتيب وتنفذ من إساره بكل سهولة فى أى وقت — ونجد أن مجالا واحدا من الموضوعات العقلية أو الأفكار يولد غيره على نحو لم يسبق فى تاريخ التفكير الانسيابى كله أن يكون له ضريب أو مثيل .

ان حلقة الاتصال هنا — عادة — هى نوع من المماثلة بين الشيئين موضوعى التفكير ، وهى مماثلة قد تدق وتعمق بحيث إننا — على الرغم من شعورنا بها — لا نستطيع أن نحلل مصدرها وأساسها الا بصعوبة ، كما يحدث مثلا عندما تقرن صفة الذكورة باللون الأحمر ونجد شيئا أنثويا فى اللون الأزرق الباهت ، أو عندما نرى ثلاثة وجوه لشخصيات ثلاث ، فيذكرنا الوجه الأول بقطة ، والوجه الثانى بكلب،والوجه الثالث ببقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين !

وطبيعى أن علماء النفس قد تعمقوا فى موضوع الأسـباب المحتملة لعملية التداعى أو الترابط .

ولقد حاول بعضهم أن يثبت أن قانونى المماسة والمشابهة ليسا مختلفين ولا متنوعين اختلافا أو تنوعا جوهريا .

أما أنا فأميل الى الاعتقاد بأن ظاهرة الترابط أو التداعى تتوقف على تركيبها الدماغى . وليست نتائج مباشرة لكوننا مخلوقات عاقلة منطقية . وبعبارة أخرى عندما نصبح أرواحا بلا جسوم فقد ينساب وعينا على نحو مختلف ويخضع لقوانين مختلفة .

لقد نوقشت هذه المسائل فى كتب علم النفس التى تناولتها بالشرح والتحليل وآمل أن يهتم بعضكم بقراءتها ومتابعتها فى هذه المصادر .

أما أنا فسأغفل أمرها كليا فى المناسبة الراهنة ؛ لأنكم -كمعلمين— لا يعنيكم بصفة خاصة الا حقيقة الترابط أو التداعى ، سواء أكانت صادرة عن مشتقات روحية أم دماغية أم أى شىء سواهما ، فلتكن ما تكون ، قابلة لأن ترد لقانون واحد ، أو مستعصية على هذا الرد والدمج .

وأيا كان مقطع الرأى فى مصدرها واشتقاقها فان هنالك حقيقة هامة هى التى يعنيكم أمرها ، فطلابكم — أيا كانوا وأنى كانوا — هم على أية حال قطع صغيرة من آلات ترابطية .

وقوام تربيتهم وتعليمهم هو أن ننظم فى داخـلهم ميـولا واتجاهات محدودة جازمة تربط الشىء الواحـد بالآخـر : الانطباعات بالنتـائج ، والانطباعات ونتائجها بردود الأفعال ، وردود الأفعال بما تتمخض عنه ، وهكذا الى مالا نهاية .

وكلما كانت أجهزة الفرد الترابطية وافرة زاخرة بالدسامة والتنوع

والغزارة — كان أقدر على ملاءمة نفسه للعالم الذى يعيش فيه ملاءمة كافية وافيــة .

ويستطيع المعلم اذن أن يحدد وظيفته لنفسه ويصوغها فى القالب الذى يفى بحاجاته وحاجات طلابه فى نطاق « الترابط والتداعى » وكذلك فى نطاق « رد الفعل الفطرى والمكتسب » .

وهذه تقوم أساساً على بناء أنظمة نافعة للترابط وأجهزة مفيدة للتداعى فى عقل الطالب .

وهذا الوصف يبدو أوسع وأشمل من الوصف الذى بدأت به عندما افتتحت الكلام عن هذا الموضوع .

ولكن عندما نفكر أن انسياب التداعى وتدفق الترابط الموصول عندنا — أيا كان — يصدران طبيعيا فى ردود أفعال مكتسبة أو سلوك ، فاننا نتبين بصفة عامة أن الحقيقة واحدة بالقياس الى الظاهرتين ، وأنها تنسحب على النوعين وتنطبق على التداعى مثلما تنطبق على رد الفعل الفطرى أو المكتسب . ومما يثير الدهشة والتعجب ذلك العدد الهائل من العمليات العقلية التى نستطيع تفسيرها اذا ما تمكنا من فقه قوانين الترابط ، اذ لا نكاد نفهمها حتى تمكننا من تفسير تلك العمليات تفسيرا واضحا .

بيد أن المشكلة العظمى التى يأخذ الترابط على عاتقه حلها هى : لماذا ينبثق بالذات مجال معين من الوعى تشكل على هذه الصورة أو على هذا النحو بالذات ؟ لماذا يظهر أمام عقلى ؟

قد يكون مجالا لموضــوعات وأشياء متخيلة ، وقد يكون أشــيله أو موضوعات متذكرة أو محسوسة ، وقد يتضمن عملا قد انعقد عليه العــزم .

وفى كلتا الحالتين فاننا عندما نحلل المجال الى أجزائه فاننا تتبين أن تلك الأجزاء قد تجمعت من أجزاء فى مجالات أمام الوعى نتيجة لواحد أو آخر من قوانين الترابط التى فصلناها الآن .

هذه القوانين هى التى تدير شئون العقل وتحكمه ... فالاهتمام وهو ينتقل من مركز ثقل الى مركز آخــر يحرفه ، والانتباه — كما سنرى فيما بعد — يوجهه ويقوده ويحول بينه وبين أن يمضى فى طريق متعرج ملتــو .

اذا فهمنا هذه العوامل فهما واضحا أمدتنا بسند بسيط متين يعيننا على فهم العمليات النفسية التى تدور فى تلك الآلة المعقدة التى نسـميها الانسان .

ان « طبيعة » الفرد — « شخصية » الفرد ، لا تعنى فى الحقيقة شيئا سوى الشكل المعتاد لترابطاته .

ومهمة المربى الأساسـية ووظيفته المميزة هى التخلص من الترابطات أو أنواع التداعى السيئة أو الخاطئة وطرحها ونبذها ثم بنــاء غيرها فى الشخصية وتوجيه الاتجاهات الترابطية الى أكثرها ثمرة واخصابا للشخصية .

ولكن هنا — كما هو الشأن فى القوانين والمبادىء البسيطة — تكمن الصعوبة فى التطبيق .

فعلم النفس يستطيع أن يمدنا بالقوانين ، وتبقى للكياسة والموهبة والقدرة وحدها مهمة تطبيقها لتؤتى أكلها .

بيد أنه من الخبرات الشائعة جدا ، المألوفة لنا جميعا ، أن عقولنا قد تنتقل من موضوع لآخر عن طريق مجالات متعددة توسطية للوعى .

ووساطة أو توسط طرائق التداعى لدينا فى صورتها المحددة الجازمة

تعتبر جانبا من الوعى لا يقل تأثيرا عن الجانب القائم على وحدة الشكل أو النظام فى صورتها المجردة .

ابدأ من أية فكرة-أياكانت — تجد أن سلسلة أفكارك برمتها موصولة المثول تحت تصرفك .

فاذا أخذنا كلمة أو إشارة أو تلميحا — أنطق بها أمامكم كنقطة بداية فى التداعى — فلن تكون هناك نهاية أو حد للأنواع المختلفة الممكنة من الاتجاهات والاقتراحات التى تثيرها فى عقولكم تلك الكلمة أو الاشارة .

لنفرض أننى أقول كلمة : « أزرق » مثلا فبعضكم قد يفكر فى زرقة السماء والجو الحار الذى تقاسيه الآن ، ثم يمضى من التفكير فى زرقة السماء والجو الحار الى التفكير فى الملابس الصيفية ، أو ربما فى علم الظواهر الجوية . والبعض الآخر قد يفكر فى الطيف وفسيولوچية رؤية الألوان ، ثم ينساب تفكيره الى أشعة اكس × والتأملات الفلسفية الحديثة الخاصة بالجسم ، وثمة فريق آخر سيتجه تفكيره الى الشرائط الزرق أو الأزهار الزرق المثبتة فوق قبعات احدى الصديقات ، ثم يتذكر الأيام الخوالى والذكريات البعيدة .

على أن هناك آخرين قد يجنحون الى التفكير فى اشتقاق الكلام واللغويات .

وقد تدرك كلمة أزرق كمرادف لظاهرة الغم أو السوداء ثم تنساب سلسلة من التداعى ترتبط بسيكولوجية الغم والسقم تفتح وتنشر نفسها فكرة اثر أخرى ، وهكذا .

ولكن المسألة لا تقف عند هذا الحد .

فالكلمة الواحدة — عند الشخص نفسه — تحدث تداعيا مختلفا لدن

سماعها فى أوقات مختلفة وهى تثير ترابطات عديدة بالقياس الى ما يشغل بال الشخص عندئذ .

ولقد قام البروفسور مونستربرج Munsterberg باجراء هذه التجربة منهجيا مستعملا نفس الكلمات أربع مرات متتابعة على فترات متقطعة — بين كل فترة وأخرى ثلاثة أشهر — وكانت هذه الكلمات بمثابة اشارات أو تلميحات لأربعة أشخاص مختلفين كانوا موضوع الملاحظة .

ولم يجد البروفسور مونستربرج أى ثبات فى تداعيهم الذى صدر عن كل واحد منهم عند سماعه لنفس الكلمة فى المرات المختلفة .

وبالاختصار فان المحتوى الكلى الممكن وجوده لوعى الفرد يسهل الوصول اليه من أية نقطة من نقاطه.ولهذا السبب لا نستطيع التنبؤ مقدما بقوانين التداعى — فاذا بدأنا من المجال الراهن الحاضر كنقطة بداية فلن نستطيع أن نحسب مقدما فيما سيفكر الفرد فيه بعد خمس دقائق .

فالعناصر التى قد تستعيد نشاطها وقوتها أثناء العملية وأجزاء المجال المتتابع التى تدور حولها الترابطات أساسا والتفرعات الثنائية الممكنة للايحاء تبلغ فى عددها وابهامها والتباسها حدا يصعب معه تحديدها أو الجزم به قبل اتضاح الحقيقة .

ولكن — على الرغم من أننا لا نستطيع أن نصطنع قوانين التداعى مقدما فاننا نستطيع دائما أن نصطنعها الى الوراء ونقتفى أثرها رجعيا فنحن لا نستطيع أن نقول الآن فى أى شىء سنفكر بعد خمس دقائق ولكن أيا كان هذا التفكير فاننا نستطيع بعدئذ أن نتتبعه ونقتفى أثره عن طريق الحلقات التوسطية للمماسة والمشاكلة ونربطه بما نفكر فيه الآن .

ان الذى يخيب عندنا سبق الرؤية مقدما ويغلب تنبؤنا على أمره هو

الدور المتنقل الذى يقوم به كل من البؤرة والهامش — بل وفى الحقيقة الدور الذى يقوم به كل عنصر من عناصر البؤرة والهامش فى حد ذاته وتداعي ودعوة الأفكار التالية .

فمثلا كنت أتلو قصيدة شعرية للشاعر لوكسلى هول Locksley Hall لكى ألهى عقلى عن حالة حيرة وتردد وجدت نفسى فيها بخصوص وصية قريب لى مات .

والوصية لا تزال رابضة فى عقلى كجزء هامشى جدا أو فوق الهامش فى مجال وعيى . وتجنح القصيدة فى إبعاد انتباهى عنها — حتى أصل الى السطر الذى يقول فيه الشاعر .

« أنا — وارث كل العصور فى السجلات المتقدمة للزمن . » .

فسرعان ما تحدث كلمات — « أنا وارث كل العصور » . ارتباطا كهربيا بالفكرة الهامشية للوصية — وهذه بدورها تجعل قلبى يضرب بشدة تلهفا على ما يمكن أن يؤول الى بمقتضى هذه الوصية فألقى بالكتاب من يدى ثم أذرع أرض الغرفة جيئة وذهابا فى حالة قلق تتمثل لى فيها ثروتى المستقبلة وهى تتدفق على عقلى .

وأى جزء من مجال الوعى يكون أكثر وفرة بإمكانيات الاثارة الانفعالية — من بقية الأجزاء — فانه يشرئب وينشط ويستعلى على بقية أرجاء مجال الوعى وتكون له الغلبة فى المبادرة والمبادأة . ثم ان انتقال مراكز ثقل الاهتمام من جزء لآخر يجرف التيارات فى أنواع متعددة من الطرق المتعرجة الملتوية ، على حين يسرى النشاط العقلى هنا وهناك كما تسرى شرارة النار الموقدة فى الورق المحترق .

بقيت نقطة واحدة يلزم على الاشارة اليها وأكون بذلك قد وفيتكم حقكم عن موضوع الترابط أو التداعى .

لقد رأيتم كيف أن كلمة واحدة مثيرة تستطيع أن تستدعى زميلاتها وصويحباتها بقوة جذب شديدة أكثر مما تفعله غيرها من الكلمات وبذلك تجرف تيار تفكيرنا بعيدا عن مساره ومداره السابق .

والحقيقة أن كل جزء من مجـال الوعى يجنح الى أن يلوذ برفقائه ويستدعى شركاءه ، ولكن اذا كان هؤلاء الشركاء والرفقاء متعـددى الاختلاف نشب بينهم التنافس ، وبمجرد أن يستعلى واحد منهم أو عدد قليل منهم علىَ الباقين أو يصبح أكثر فاعلية فانه يجرف الباقى من أمامه ويكتسحه ويخلفه وراءه ويمضى هو قدما الى غايته .

وقلما تدور العملية حول نقطة واحدة فى المجال العقلى ، أو حتى حول المجال كله الذى يكون مباشرة فى حالة مرور .

الذى يحدث هو نوع من التجمع أو التكتل تدخل فيه أجزاء من المجال قد مضت بالفعل ثم أصبح لها القول الفصل .

وهكذا نعود كرة أخرى الى قصيدة لوكسلى هول Locksley Hall — فكل كلمة أتلوها بنظامها الرتيب كما وردت فى القصيدة لا ترد الى ذهنى بسبب الكلمة التى سبقتها فحسب — التى تنتهى شفتاى من تلاوتها — ولكنها بالأحرى نتيجة لكل الكلمات التى سبقتها مجتمعة من القصيدة .

فكلمة « العصور » مثلا تستدعى كلمات « فى السجلات المتقدمة للزمن » — عندما تسبقها كلمات « أنا وارث كل الـ ... » ولكن اذا سبقتها كلمات « لأننى لا أشك فى أن الـ ... » فانها تستدعى كلمات « سبب واحد متزايد يمضى ... » .

وبنفس الطريقة اذا كتبت على السبورة الحروف أ — ب — ت — ث — ج — ح — خ . فانها ستوحى اليكم بالحروف د — ذ — ر — ز . ولكن اذا كتبت حروف أ — ب — فانها توحى اليكم — ان كانت توحى اليكم بشىء — بتكملتها د — ى — ه أو أبدية . فالنتيجة تتوقف على التجمع الكلى — حتى اذا كانت معظم الحروف الفردية واحدة فى الحالتين .

ان هدفى العملى من ذكر هذا القانون هو أنه يترتب عليه أنكم عندما تقرون ترابطات بالتداعى فى عقول طلابكم فينبغى ألا تعتمدوا على إشارات أو تلميحات أو مفاتيح مفردة ، ولكن أكثروا منها ما استطعتم الى ذلك سبيلا .

أقرن رد الفعل المطلوب بعديد من التجمعات السابقة . لا تسأل السؤال دائما — مثلا — بالطريقة نفسها . لا تستعمل المادة نفسها فى المسائل الحسابية . نوّع أمثلتك .. وأكثر منها بقدر ما تستطيع الخ الخ .. وعندما أعالج معكم موضوع الذاكرة سنزيد من معلوماتنا فى هذه النقطة وتتفتح لنا آفاق أوسع .

واذن فلنكتف بهذا القدر من الحديث عن الموضوع العام للترابط أو التداعى .

بيد أننى أحب أن أتركه وأنتقل الى قضايا أخرى (وسنجد أنه يدخل فى تركيبها جميعا وأنها زاخرة بمضامينه) أجد نفسى مضطرا الى حثكم على أن تخلقوا فى طلابكم قدرة يكتسبون بها عادة للتفكير تقوم على التداعى والترابط .

إن كل حكام الانسانية — الذين يمسكون بزمامها ويتحكمون فى

مصيرها — من الأطباء وحراس السجون الى زعماء السوقة وكبار الساسة ، يتتابعون عـلى هـذا النسق لكى نستطيع أن تتصور أحمالهم وأثقالهم ومثالبهم .

فاذا فعلتم مثـل ذلك (بالاضافة الى ما يدور فى خلدكم بشأنهم) كأجهزة كثيرة صغيرة من الآلات الترابطية ، فانكم ستندهشون من قدرتكم على النفاذ فى إدراك أعمالهم وإجراءاتهم ، وكذلك على فعاليتكم العملية فى احراز النتائج التى ستصلون اليها .

اننا نفكر فى معارفنا — مثلا — على اعتبار أنهم يتميزون باتجاهات أو ميول معينة ، هذه الاتجاهات والميول ستثبت — فى كل حالة تقريبا أنها اتجاهات ترابطية ، أو ميول بالتداعى .

فبعض الأفكار لديهم تصاحبها دائما أفكار معينة أخرى ، وهذه بدورها تصاحبها مشاعر معينة وبواعث أو دوافع خاصة للاتفاق أو الاختلاف — للمضى أو الاحجام اذا أثار الموضوع تلك الأفكار الأولية فيمكننا التنبؤ بالحصيلة العملية . « أنماط الشخصية » هى اجمالا وبالاختصار « أنماط للتداعى والترابط » .